مجلة التراث العلمي العربي فصلية ، علمية ، محكمة العدد الأول – 2013م

غربة الشعراء المشردين وحنينهم في العصر الجاهلي

أ.م.د.صبيح مزعل جابر
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

(**خلاصة البحث**)

يتناول هذا البحث قضية الغربة ، والتغرب والابتعاد ، سواء أكان قسريا بمعنى النفي أو طوعيا بمعنى الهجرة وقد كان المبدعون من أصحاب الأدب والفن هَمْ من تعرض لمثل هذا النفي وهذا العذاب، منذ أن بدأت السلطة تفرض رأيها وقيادتها على المجتمع .

وقد استمرت هذه الظاهرة منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا و إن حلت السلطة القمعية محل سلطة القبيلة في رغبتها بإخضاع الجميع لإرادتها وسلطتها وان يتحول الجميع بمن فيهم الشعراء ، وأصحاب الرأي إلى أناس طائعين خاضعين لمشيئة الحاكم المستبد والسلطة القمعية .

من هنا نشأت ظاهرة النفي والإبعاد للمعارضين والمخالفين للسلطة ومن هنا ظهرت المنافي وتولد غرض الغربة والحنين في الشعر العربي.

الغربة والحنين

قال تعالى: ((ولو إنّا كتبنا عليهم، أنِ اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم)).[1]

الغربة: ربما تكون الغربة قد رافقت الإنسان منذ بدء الخليقة، ومنذ أن أخرج (آدم وحواء) من الجنة إلى الأرض، ومنذ أ ول الجنين خرج من رحم أمه إلى الحياة

الدنيا، ومنذ أول جريمة للقتل في التاريخ، أي ما حصل بين (قابيل وهابيل) وكذلك يمكن أن تكون الغربة قد بدأت قبل ان تتشكل الأسرة في التاريخ، وذلك من خلال غربة الأبناء عن أبيهم، وغربة الأم عن الأب، ومن ثم غربة الأسرة عن الأسر الأخرى، وغربة الأب في البيئة، التي يعيش فيها، أو المحيط الذي يعيش فيه مع أسرته الصغيرة.وفي حديث للرسول محمد (ص) قال : إنَّ الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، كما بدأ فطوبى للغرباء... أي أنه كان في أول أمره كالغريب الوحيد، الذي لا أهل له، لقلة المسلمين يومئذ، وسيعود غريباً كما كان، أي يقل المسلمون في آخر الزمان، فيصيرون كالغرباء، فطوبى للغرباء، أي الجنة لأولئك المسلمين، الذين كانوا في أول الإسلام، ويكونون في آخره.[٢]لذلك يمكن القول، بأن الغربة أو الاغتراب، هما ذلك الإحساس، أو الشعور الذي يتولد في وعي الإنسان، ويتسبب في ولادة الألم الداخلي، والقلق المضني وإعاقة التفكير، وتعكير المزاج النفسي، الذي يولِّد شعوراً بغرابة كل شيء، وكل ما يجري حوله، والشعور بالوحدانية، والقلة، والضعف والانعزال والتهميش.يقال اغترب الرجل، أي نزح عن وطنه، أو تزوج في غير الأقارب.. وتغرب: نزح عن وطنه، والتغريب ، البعد . والغربة النوى والبعد . ودار غربة : أي غربتها ، بَعْدُها . والغريب البعيد عن وطنه، وجمعه غرباء، ومن ليس من القوم.[٣]

وفي القاموس المحيط، فان البعد والنوى كالغربة، وقد تغَرّب. والنزوح عن الوطن كالغربة والاغتراب والتغرّب.[٤]

وفي لسان العرب المحيط ، التغريب : النفي عن البلد. وغَرَبَ : أي بَعُدَ ، ويقال أَغْرُب عني : أي تباعد. ومنه الحديث الشريف : أنه أَمَرَ بتغريب الزاني سنة إذا لم يُحْصَنْ. والتغريب : النفي عن البلد، والغُرب : الذهاب والتنحي عن الناس. وقد غَرُبَ عنا يَغْرُبُ غرباً. وغَرَّبَ وأَغرَب ، وغَرَّبه وأَغربه : نحاه . والغربة والغَرب : النوى

والبعد ، وقد تَغَرَّبَ . وغربة النوى : بُعْدُها.والتغريب : النفي عن البلد . وغَرَب : أي بَعُدَ ، ومنه الحديث أنه أَمر بتغريب الزاني . والتغريب : النفي عن البلد الذي وقعت الجناية فيه يقال : أغربته وغربته : إذا نحيته وأبعدته. [٥] والتغرب : البعد . وفي الحديث الشريف أن رجلاً قال له : إنَّ امرأتي لا ترد يَدَ لامسٍ. فقال : غربّها، أي أبعدها ، يريد الطلاق. والغرُبة والغرْبُ : النزوح عن الوطن والاغتراب. والاغتراب والتغرب، ومنه تَغَرَّب واغْتَرَّبَ ، وقد غرَّبه الدهرَ. ورجلٌ غُرُب، بضم الغين والراء ، وغريبٌ : بعيد عن وطنه ، والجمع غرباء. والأُنثى : غريبة. وأن أكثر من يغزل بالأجرة، إنما هي غريبة.[٦]

الحنين: يكاد يكون كتاب أبي الفرج الأصفهاني (284هـ - 987م / 356هـ - 967م) أدب الغرباء ثاني كتاب في التراث العربي الأدبي يتناول معاناة الغربة، ومصائر الغرباء في المجتمع العربي، بعد أن كانت رسالة الجاحظ (160هـ - 777م / 255 هـ - 869م) (الحنين إلى الأوطان) أول رسالة مطولة، في هذا المجال. وقد جاء في كتاب الأصفهاني هذا: قرأت على فناء المسجد الجامع مكتوباً : كنا نسمع من أهل العلم يقولون : فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف اذا اجتمعت الغربة وفقد الأحبة.[٧] فمن الجاحظ إلى الأصفهاني وصولاً إلى البياتي كانت الغربة، والموت فيها، كابوس رعب يقض مضاجع الإنسان الغريب، والشاعر المنفي، البعيد عن وطنه وأرضه وأحبته، فقد ذكر الجاحظ : أن أرض الرجل (ظِئره) والظِئر، المرأة التي تحضن ولد غيرها، وداره مهده، والغريب النائي عن بلده، المتنحي عن أهله، كالثور ألناد عن وطنه، الذي هو لكل رام قنيصه.. وفي مكان آخر يذكر الجاحظ أيضاً : إن الجالي عن مسقط رأسه، ومحل رضاعه، كالعير(أي الحمار الوحشي والأليف أيضاً) الناشط عن بلده، الذي هو لكل سبعٍ قنيصه، ولكل رام دريئة. [٨]إن

الشواهد التي ذكرها الجاحظ في هذا المجال،كثيرة، فقد ذكر في رسالته قول أحدهم : عسرك في دارك أعز لك من يسرك في غربتك، وأنشد :

لقرب الدار في الإقتار خيرٌ من العيش الموسع في اغترابِ[٩]

وقال آخر :

الغريب كالغرس الذي زايل أرضه، وفقد شربه، فهو ذاوٍ لا يثمر، وذابل لا ينضر.

وفي التراث العربي قيل الكثير من الشعر في الغربة وآلامها ومعاناتها،

وباستطاعتنا ذكر الكثير من الشواهد الشعرية، التي عبَّرت ـ بألم ـ عن ظاهرة الغربة في مدياتها التاريخية الطويلة

ويذكر الجاحظ أيضاً، أن جالينوس قال : يتروح العليل بنسيم أرضه ـ كما تتروح الأرض الجدبة ببلل القطر ، وأضاف : وجدنا الناس بأوطانهم أقنع منهم بأرزاقهم، ولذلك قال ابن عباس : لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى عبدٌ الرزق.[١٠]

وهكذا فان العرب قد قالت الكثير في موضوع الغربة : حماك أحمى لك، وأهلك أحفى بك. وقيل الغربة كربة، والقلة ذلة، وقال أحدهم :[١١]

لا ترغبوا إخوتي في غربة أبداً إنَّ الغريب ذليل حيثما كان

وشبهت الحكماء، الغريب باليتيم، اللطيم، الذي ثكل أبويه، فلا أم ترأمه ولا أب يحدب عليه. وقيل لبعض الأعراب ما الغبطة؟ قال:الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل له فما الذلة؟ قال : التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان.[١٢]

وأحياناً يشعر الإنسان بالغربة، وهو في دياره، وفوق تربة أرضه، وبين أهله وأحبته، وهذا النوع من الغربة، هو أقسى أنواع الغربة، سواء أكانت مكانية أم زمانية

أم روحية، توصل من يعانيها إلى حالة من الاغتراب عن كل ما يحيط به. وقد وصفها شيخ الأدب العربي الجليل أبو حيان التوحيدي، حيث قال فيها القول الأجمل:((أغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه. وأبعد البعداء مَنْ كان بعيداً في محل قربه)).[١٣]

إن الغربة عادة ما تكون الأم الشرعية للحنين، أي أن الحنين وليد الغربة. والحنين يظل يؤرق صاحبه، ويعذبه ويبكيه أحياناً، ويدمى مشاعره وأحاسيسه، ذلك أن الإنسان المبعد أو المنفى قسراً أو طوع إرادته لا يمكن أن تقلع جذوره الراسخة في أعماق تربته الأولى، وهذا الرسوخ، هو الذي يولد الحنين، ومن ثم يولد الشعور بالألم واللوعة.

والغربة والحنين، هما سبب ونتيجة، وسبب الشعور بالغربة هو الابتعاد عن الأمكنة والأزمنة، والأشياء المألوفة والقريبة إلى المشاعر والأحاسيس الإنسانية..

وظاهرة الابتعاد والتغرب ليست جديدة على الإنسان بشكل عام والعربي بشكل خاص ـ وهذا ما أشرنا إليه في البداية ـ فقد عاش أجدادنا القدماء بين حل و ترحال لملاحقة أسباب العيش أو الابتعاد عن الصراعات القبلية والخلافات التي كانت ظاهرة مألوفة، وخاصة في عهد الجاهلية، وقد عرفت بأيام العرب، أو وقائع العرب، التي غالباً ما تدوم طويلاً، ويذهب بسببها الكثير من أبناء القبائل وفرسانها، فضلاً عن ظاهرة (الخلع) من القبيلة، التي تمارس ضد (المولدين) أو السود، من أمهات حبشيات وممن كانوا يسمون بـ (أغربة العرب) سنتحدث عنهم لاحقاً.وإذا ما رجعنا إلى قواميس ومعاجم اللغة العربية للوقوف على تفسيراتها لمفردة (الحنين) لوجدنا فيها سعة وشمولاً في تفسيرات أصحاب هذه القواميس والمعاجم لمفردة (الحنين).

فالحنين : هو الشديد من البكاء والطرب، أو صوته من حزن أو فرح، أو الصوت

الدال على النزاع والشفقة، وكذلك هو ترجيع الناقة صوتها أثر ولدها. وهو أي الحنين: الشوق وتوقان النفس.(١٤)

والحنين في القاموس المحيط للفيروز أبادي، هو الشوق وشدة البكاء والطرب أو صوت الطرب عن حزن أو فرح، حنَّ يحنُّ حنيناً، استطرب فهو حانٌ ،كاستحن وتحان والحانة : الناقة كالمستحن. والحنّانة: القوس أو المصونة منها. وقد حنَّت وأحنها صاحبها، والتي كان لها زوج قَبْلُ ، فتذكره بالحنين والتحزِّن، والحنان كسحاب الرحمة والرزق والبركة والهيبة والوقار، ورقة القلب، وحنان الله أي معاذ الله والحنون: الريح لها حنين كالإبل(١٥).

أما لسان العرب المحيط، فقد ذكر بان أصل الحنين، ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها. والحنّان : الذي يحنّ إلى الشيء. والحنّة : رقة القلب. ويقال : حنَّ عليه: أي عطف عليه. وحنَّ إليه: نزع إليه.

الغربة في تراث الأدب العربي

بعد أن قام الجاحظ بحصر شذرات الحنين ، التي تولدها الغربة في إحدى رسائله المطولة ، والموسومة بـ (الحنين إلى الأوطان) تصدى أبو الفرج الأصفهاني لقضية الغربة ، وما تولده من آلام في نفس الغرباء ، البعيدين أو المبعدين عن أوطانهم ، حيث عمل على جمع وتدوين ما عثر عليه من أشعار وكتابات تركها أصحابها على الجدران ، أو على الأحجار ، أو على ما يتاح لهم من وسائل للتعبير عن معاناتهم التي تولدها الغربة ، أو من خلال تلك التعبيرات ، التي نقلها له بعض الرواة ، وتركها أو أودعها في مخطوط كتاب أطلق عليه (أدب الغرباء) . فهو يقول : "لقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلى وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرا في

غربة ، ونطق عما به من كربة ، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه ، ونازح الدار عن إخوانه ، فكتب بما لقي على الجدار ، وباح بسره في كل حانه وبستان .اذ كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد ، وعلاقة بينهم في كل محضر ومشهد "[١٦].

إن اهتمام أبي الفرج الأصفهاني بالغربة والغرباء ، وشعوره بالآمهم ومعاناتهم ، لم يأت من فراغ ، فربما يكون الأصفهاني قد عاش بعض فصول هذه التجربة المرة ، فوجد في نفسه نموذجا بسيطا يدفعه للبحث عما قيل ويقال في معاناة الغربة وأسبابها ونتائجها ، الأمر الذي دفع كاتب مقدمة كتاب (أدب الغرباء) أن ينتبه إلى هذه المسألة فيكتب : " لكأَن أبا الفرج أحس انه أصبح غريبا ، وحيدا ، نزلت عليه الهموم واكتنفته الكروب والغموم ، ورأى أن حاله كحال أولئك الغرباء المشردين عن الأوطان ، البعيدين عن الإخوان ، فجمع أخبارهم في هذا الكتاب ، ولعله اتخذ من هذه الأخبار وسيلة للتأسي والسلوى ، والترويح عن النفس ، وأضاف إلى هذه الأخبار ذكريات خاصة ، بعيدة وقريبة ، فجاء الكثير من هذه الأخبار والذكريات مملوءة بالحياة ".[١٧]

إن الغربة ومعاناتها ، وتيار الحنين الطاغي لا يحسن الحديث عنهما أو توصيفهما بدقة وصدق إلاَّ مَنْ عاش تفاصيلهما ، ولذلك وجدنا شعراءَنا المعاصرين ، الذين عاشوا جحيم الغربة بدءا بالكاظمي مرورا بالجواهري الذي قال :

أرح ركابك مِنْ أَين ومن عثر كفاك جيلان محمولا على سفر

وكذلك السياب ومصطفى جمال الدين ، والبياتي وسعدي يوسف وغيرهم الكثير ممن نظموا أشعارا كثيرة في هذا المجال ، نابعة من تجربة صادقة ، قد عاشها هؤلاء

الشعراء في منافيهم البعيدة ، التي طالت مدياتها الزمنية (فالغربة أطول عمرا من الغرباء)كما قال احد المعاصرين ذات مرة .

إن العرب قد عانت منذ أقدم عصورها من عذاب الغربة والابتعاد عن الأوطان ، سواء أكان هذا الابتعاد صادراً عن رغبة في نفس صاحبه أو مسلطاً عليه بوسائل إرهابية – كما يذكر ذلك الشنفرى – وحين يقع المرء في محنة الغربة وعذابها ، فانه لا يجد متنفسا يزيح عن كاهله ثقل هذا الكابوس سوى الحنين ، واستعادة ملامح الذكريات المخزونة في مستودع الذاكرة ، وذلك من خلال الكتابة على ما يتيسر له من أشياء ، وأماكن تكون متاحة لمن يريد أن يقرأها ، وخاصة جدران المساجد والكنائس والأماكن العامة . فالشاعر لم يكن مخطئاً حينما قال قديما مخاطباً قومه :

لا ترغبوا إخوتي في غربة أبداً إنَّ الغريب ذليلٌ حيثما كانا
أَحنُّ إلى بغداد شوقا وإنما أَحنُّ إلى ألف بها لي شائق
مقيم بأرض غبت عنها وبدعة إقامة معشوق ورحلة عاشق

وتعزيزا لما سبق ذكره يمكن الإشارة إلى ما قاله الوراق للأصفهاني حين إلتقاه بسوق في الأحواز إذ اخبره : خرجت يوما إلى بيوت العباد التي على الجبل ، الذي يلي (البلد) وقد كنت شاهدتها . فقرات على بيت منها مكتوبا :حضر فلان بن فلان الكاتب هذا الموضع في مرقعة ، خائفا ، هاربا مظلوما ، وهو يقول : سترك ، سترك وإذا تحته مكتوب بغير ذلك الحظ :اللهم استجب دعاه ، واسمع شكواه ، واكشف بلواه : [١٨]

ورد كل شتيت عن أحبته وكل ذي غربة يوما إلى الوطن
وارحم تقطعهم في كل مهلكةٍ وامنن بلطفك يا ذا الطول والمنن

أغربة العرب وصعاليكها :

شعراء هم صنهم القبيلة فعانوا الغربة

إنَّ أغربة العرب، هم سودانهم ، وشبهُّوا بالأغربة في لونهم . والأغربة في الجاهلية ، هم عنترة ، وخفاف بن ندبة السلمي، وأبو عمير بن الحباب السلمي أيضا ، والسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط.

إلاَّ أن هشاماً هذا مخضرم قد ولي في الإسلام. ومن الإسلاميين: عبد الله بن خازم ، وعمير بن أبي عمير بن الحباب السلمي ، وهشام بن مطرف الثعلبي، ومنتشر بن وهب الباهلي، ومطر بن أوفى المازني. ومن الشعراء الجاهليين تأبط شراً ، والشنفرى. ومن بين أغربة العرب(حاجز) فقد قال ابن سيده، كل ذلك عن ابن الإعرابي. وحاجز لم ينسب إلى أب ولا إلى أم ولا إلى حي، ولا إلى مكان، ولم يعرفه بأكثر من هذا.[١٩]وأغربة العرب سرى إليهم السواد من أمهاتهم ، فقد كانت أمهاتهم (إمات) سود، وأغلبهن حبشيات. [٢٠]

وجاء في القاموس المحيط (أغربة العرب) سودانهم. وتغَرّب: أَتى من الغرب، وَغرَبَ: غابَ كغَرَّبَ وبَعُدَ ، وأغترب: تزوج في غير الأقارب. [٢١]

ولما كان أغربة العرب يعانون شتى أنواع التمييز والتهميش والتحقير فقد انضم هؤلاء إلى أول حركة يقودها (الأغربة) الشعراء أَلا وهي حركة الصعلكة، الرافضة لكافة أشكال المذلة والإهانة والتحقير ، التي تمارسها القبيلة على هؤلاء المولودين من أمهات سود، أو حبشيات ، ويطبقون عليهم قوانين القبيلة الجائرة، المبنية على التعصب الأعمى القائم على إهانة الغير. فما تصعلك (أغربة العرب) إلا رفض حاد لقوانين القبيلة، التي ترفض هي الأخرى الاعتراف بنسب الأبناء السود، أبناء الحبشيات،

فتأبط شراً ابن امة حبشية سوداء، ورث عنها سوادها، وربما كان لسواده، وتعيير عشيرته به، وبأنه ابن أَمة أثر في تصعلكة. (٢٢)

عنترة: من أبرز " أغربة العرب" الشعراء عنترة بن شداد، وهو واحد من شعراء المعلقات، التي سبقت ظاهرة التصعلك. وقد تميز بشجاعته وبسالته في الحروب والوقائع العربية الكبيرة، التي شهدتها العرب، الأمر الذي دفع أباه لأن يستلحقه بنسبه. والى أن يزوجه عمّهُ ابنته(عبلة). وكان عنترة فارس داحس والغبراء ، كما كان فارس عبس. (٢٣)

عنترة بن شداد العبسي، أحد شعراء العرب وفرسانها وأبطالها، ومن أَصحاب المعلقات. أُمه كانت أُمة حبشية(سوداء) يقال لها (زبيبة). وكان لعنترة أخوة من أمه عبيد، وكان هو عبداً أيضا، لأَن العرب لا تعترف ببني الإماء، إلاَّ إذا امتازوا على أكفائهم ببطولة أو شاعرية أو سوى ذلك.

ولكن عنترة سرعان ما اعترف به أبوه لبسالته وشجاعته ، وكان السبب في ذلك ، أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس ، فأصابوا منهم، فتبعهم العبسيون، و لحقوهم، فقاتلوهم، وبينهم عنترة. فقال له أبوه: كر يا عنترة، فقال له : العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والصر، فقال : كر وأنت حر، فكرَّ وقاتل يومئذ ، فأبلى ، واستنقذ ما في أيدي القوم من الغنيمة ، فدعاه أبوه بعد ذلك.

لقد كانت زبيبة أم عنترة ، كما ذكرنا، أمة سوداء حبشية، ولهذا السبب كان عنترة هجيناً ، مختلط النسب بين العرب والأحباش ، ولذلك ظل بعيداً عن نسب بني عبس . وقد نشأ عنترة في نجد عبداً يرعى الإبل ، محتقراً في عيني والده وأعمامه، ولكنه نشأ شديداً ، بطاشاً شجاعاً كريم النفس ، كثير الوفاء، وأحب منذ صغره عبلة، ابنة عمه مالك، ولكن عمه كان كثير التعنت، فلم يرضَ أن يزوج ابنته

بعبد أسود. وأدرك آل عنترة بأس أبنهم وشجاعته ، فأحبوا أن يستغلوهما في حرب أعدائهم، وخصومهم ، فكانوا يحرضونه دائماً على خوض المعارك ، ويمنونه مقابل ذلك بزواج(عبلة) فإذا انجلت المعركة، وأدرك العبسيون ثأرهم ، أو نالوا مآربهم حرموا عنترة من الغنيمة، ونكثوا عهدهم إليه بزواجه من عبلة.

وأخيرا أغارت قبيلة من العرب على بني عبس غارة حملوا فيها كل شيء ،وسبوا عبلة أيضا. فلما جاء أبوه يستثيره لخوض الحرب، أبى وقال: العبد لا يحسن الكر، بل يحسن الحلاب والصر، فقال له أبوه: "كرْ يا عنترة وأنت حر" فلحق عنترة بالمغيرين واسترد منهم كل ما سلبوه . ويظهر أن أباه استلحقه بعد هذه الحادثة بنسبه . مات عنترة قبل الهجرة بثمانية أعوام. (٢٤)

إنَّ معاناة عنترة كانت شديدة الوقع في نفسه ، لأنها كانت نابعة من غربة المكان ، الذي يعيش فيه، ومن إحساسه الروحي والمادي بأنه غريب عن الناس الذين يعيش معهم، ويشاركهم أَفْرَاحهم وأَحزانهم، وهذه الغربة فرضتها عليه قوانين القبيلة الجائرة التي حرمت الابن من أبوة أَبيه مثلما حرمته من نسب القبيلة، التي ينتمي إليها، ومما زاد في غربته أن عمه منعه– مثلاً– من زواج ابنته ، لا لشيء ، وإنما لكونه عبداً أسود، وابن أمة حبشية سوداء. وحين بعدت عنه عبلة في مكان آخر بصحبة أهلها، قال فيها شعراً نابعاً من تجربة مُرَّة فرضت عليه فراق عبلة:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

دارٌ لآنسةٍ غضيض طرفها طـوع العنـاق لذيذة المتبسمِ

وحين بعدت عنه (عبلة) قال عنترة : (٢٥)

كيف المزار وقد تَرَبَّع أهلها بعنيزتين وأهلنـا بـالغيلمِ

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زُمَّتْ ركـابكم بـليلٍ مظلـمِ

إنَّ قصيدة عنترة عذبة ، رقيقة تمازج النفس ، فتمتزج بها، لأن عنترة في ما يظهر كان عذب النفس ، رقيق القلب ، قوي العاطفة، جاء ذلك من أنه عزَّ بعد أن ذلَّ، وتحرر بعد رق ، فهو شقي في طفولته وصباه، واحتمل الأذى في شبابه ، والذي يمتزج بالنفس يصفي عواطفها يلطف حدتها. وكان عنترة في حياته وشخصيته وعواطفه وآماله وآلامه كان كائناً يتحدث عن النفوس ، ويصف حياة الناس، ويأخذ من تجربته وخبرته، ومن فراسته وذكائه أساليبه وصوره، ويستمد من إلمامه بالحياة، ومعرفته ببيئته مادة بيانه وشعوره وشعره. (٢٦)

طرفة: من بين أبرز المتمردين على قوانين القبيلة ، وعلى ظلم الأسرة والقبيلة، معاً، الشاعر الشاب طرفة بن العبد(540م- 565م) الذي عانى بسببهما عذابات الغربة والتشرد، والعوز والفاقة والحرمان، التي انتهت بمقتله. وكان مقتله عبارة عن حكم بالإعدام صدر بحقه من حاكم ظالم في ظل سكوت قبيلته ووشاياتهم ، التي أوصلت طرفة إلى هذا المآل القاسي.

طرفة بن العبد، اسمه عمرو، وسمي طرفة ببيت قاله. وأمه وردة، وكان من أحدث الشعراء سناً واقلهم عمراً، فقد قتل ، وهو ابن الخامسة والعشرين سنة، لذلك يقال له ابن العشرين. (٢٧) وهو صاحب شخصية واضحة في شعره، شابُ جمع إلى فتوة الشباب وطيشه حكمة الشيوخ وتفكيرهم.ويعجب النقاد والمستشرقون به بشخصيته وشعره إعجاباً شديداً. وشعره صورة واضحة لحياته كل الوضوح. (٢٨)

كان أبوه شاباً قوياً ظاهر الفتوة والجرأة والإقدام وقد مات وطرفة طفل صغير ، وترك غير طرفة ابناً آخر اسمه معبد، ورد ذكره، وذكر ابنته في معلقة طرفة:

إذا متُ فانعيني بما أنا أهله وشقي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

وأم طرفة اسمها (وردة) وقد ورد ذكرها في شعره أيضا. (٢٩)

ما تنظرون بحق وردة فيكـم صغر البنون ورهط وردة غُيَّبُ
قد يبعث الآمرَ العظيم صغيره حتى تظل لـه الدماء تَصبَبُ
والظلـمُ فرّق بين حي وائل " بكـر" تساقيهـا المنايا تغلبُ

هذه هي الأبيات الأولى ، التي أنشدها حين وجد أعمامه يظلمونه ويغتصبون حقاً لأمه (وردة) إذ أبوا أن يقسموا مال أبيه، ومنعوا حقَّ أمه منه فثارت نفسه، واشتعلت مشاعره وشاعريته، وبدأ شعوره بالظلم ينمو ويكبر إزاء هذا الواقع الممتلئ بالجشع ، الخالي من العدالة، ومراعاة الحقوق.

وطرفة ، لقب الشاعر. أما اسمه، فهو عمر و بن العبد بن سفيان من بني سعد بن مالك بن ضبيعة من بكر بن وائل. وأمه وردة بنت عبد العزي من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار. وكان لطرفة أخ اسمه(معبد) مرَّ ذكره. وأخوات إحداهن الخرنق بنت بدر بن مالك ، من أمه وردة ، وكانت شاعرة ، وكذلك كان له ابن عم اسمه مالك، ولم تكن صلته بأخيه وبابن عمه حسنة. (٣٠)

كان طرفة وقومه يعيشون في البحرين ، وهي واقعة في شرق الجزيرة العربية، وتمتد من عمان إلى حدود العراق، ومن أشهر مدنها(هجر) التي ضرب المثل بكثرة تمرها، فقالوا :" كناقل التمر إلى هجرٍ". ومن مدنها كذلك قطر، وكان يسكن البحرين قبائل كثيرة من العرب. ومناخها جميلٌ معتدل ، نظراً لقربها من البحر، وهي قريبة من الحيرة. وكانت تخضع لنفوذها ، والقبائل التي تعيش فيها، والشعراء الذين نشأوا في أرضها لهم صلات واضحة بملوك الحيرة، الذين يخضعون لنفوذ أكاسرة الفرس وسلطانهم. وهذه البقعة من أرض الجزيرة العربية قريبة من العراق وإيران، يمر بها الكثير من المسافرين بين هذه البلاد. وهي خاضعة للحيرة، والحيرة كانت آنذاك ملتقى الأفكار والديانات والمذاهب المختلفة، وفيها قسط من الحضارة وكانت

النصرانية منتشرة فيها. فلابد أن يكون لكل هذه العوامل أثرها في عقلية أبنائها وتفكيرهم في الحياة. وفي عقلية وتفكير شاعرنا طرفة بوجه خاص. (٣١)

تميزت حياة طرفة بن العبد بعدم الاستقرار والتنقل في البلاد ، فقد ذهب إلى اليمن ، ثم رحل منها إلى النجاشي في الحبشة ، وقال في إطرائه شعراً . ولما فزعته الغربة ، وحرق قلبه الحنين إلى أهله وبلده، عاد إلى الوطن ، الذي هجره ، فأمده أخوه (معبد) بمال من ماله، ولكنه أتلفه في لذاته، ولهوه وعبثه... وكانت حبيبته تعيرَّه لسيره في البلاد ، وتنقله فيها بعيداً عن أهله وبلاده فيقول: (٣٢)

تُعيرِّ سيري في البلاد ورحلتي ألا ربَّ دار لي سوى حرّ دارك

وما كاد طرفة بن العبد، صاحب المعلقة الثانية، يفتحُ عينيه على الحياة حتى قذف بذاته في أحضانها ، يستمتع بملذاتها في غير حرج، فلها وسكر ولعب، مبذراً حد الإسراف ، مكابراً لا يريد الأرعواء ، فاضطر قومه ، ومن بينهم أخوته إلى طرده– بدون وجه حق– فركب ناقته يضرب في البلاد، تارة يغزو، وطوراً يأوي إلى مغاور الجبال. ولكن بعد أن ذاق طرفة علقم الغربة، وقاسى ما قاس ى من حرمان التشرد، رجع إلى قبيلته ، وفي نيته أَن ينقاد إلى أقطابها، فيركن إلى الحياة المستقرة بين الأهل والأصحاب.

وعند عودته اضطرته الحال إلى أن يرعى إبل أخيه لأبيه، ولكن شغله قول الشعر عن رعاية الإبل ففقدت، فطالبه بها أخوه، فلجأ إلى ابن عم له اسمه مالك، فخذله ولامه. وبعد ذلك ردَّ إبل أخيه، ورجع إلى حياته الأولى، يغرق في العبث واللهو. وعاود تنقله حتى وصل إلى بلاط ملك الحيرة، فأكرمه الملك عمرو بن هند، وقربه من مجلسه، وأغدق عليه، ولكن الوشايات كانت كثيرة، وكانت تصل إلى ملك الحيرة، وكلها ليست في صالح طرفة، وأخيرا قرر ملك الحيرة قتله ، فقال له إني قاتلك

لا محال، فاختر لنفسك ميتة تهواها، فقال : إن كان ولابد، فاسقني الخمر وافصدني ، ففعل به ذلك ، فما زال ينزف دمه حتى مات.[٣٣]

يذكر بصاحب الجمهرة : إن قبر طرفة اليوم معروف بهجر بأرض لبني قيس بن ثعلبة ، ويروى انه قال قبل قتله: [٣٤]

فمن مبلغ أحياء بكر بن وائل بأن ابن عبد راكبٌ غير راجلِ

على ناقة لم يركب الفحل ظهرها مدببة أطرافها بالمناجلِ

أما شاعرية طرفة بن العبد فقد أوضحها بشكل جلي شيخ الشعراء(لبيد) عندما قال: اشعر الناس الملك الضليل (امرؤ القيس)ثم الشاب القتيل(طرفة) ثم الشيخ أبو عقيل (يعني لبيد نفسه)[٣٥].

لقد عاش طرفة أبان النهضة الشعرية في العصر الجاهلي، التي حمل لواءها امرؤ القيس ، ومن عاصره أو جاء بعده من الشعراء... وأسرة الشاعر بمن كان فيها من أعلام في الشعر جعلته يرث هذه المواهب ، ومن أسرته المرقش الأكبر،و خاله المتلمس ، وكانت أخته الخرنق شاعرة، كما كان من شعراء قومه الحارث بن حلزة ، وسواه. ورحلة الشاعر في البلاد مابين اليمامة واليمن والحبشة إلى الحيرة ، وبعض أرجاء البلاد العربية أمدته بمدد لا ينفد ، وبثروة فنية وفكرية واسعة، مما ظهر في شعر الشاعر وأفكاره وآرائه وحكمه، يضاف إلى ذلك فطرة الشاعر وخلقه وصفاته من حدة الذهن ، واضطرام المشاعر، وتوازن العواطف، وكانت شاعريته في بدء أمرها قوية خشنة، قوة البداوة، وخشونة الصحراء... ثم أخذت شاعريته تنضج، وبدأ يكثر من قصائده في الفخر بأحسابه، وهجاء خصومه، فأخذت ألفاظه تلين وتسهل ، ثم خبر الحياة وطاف في الأرجاء ، وشاهد ألوانا من التفكير والمذاهب والآراء . فكانت شاعريته قد كمل نضجها. [٣٦] ومن أبرز ما قاله طرفة في مجال الغربة والتغرب:

تَرَحَّلَ مِنْ أَرض العراقِ مُرقَّشٌ على طربٍ تهوي سراعاً رَواحِلهُ

الصعلكة : غربة اجتماعية في الشعر الجاهلي

الصعلوك: الفقير ، الذي لا مال له ، ولا اعتماد . وقد تصعلك إذا صار كذلك.

قال حاتم طي في هذا المجال:

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاً سقاناه ، بكأسيهما الدهرُ

أي عشنا زماناً. وتصعلكت الإبل ، خرجت اوبارها وانجردت وطرحتها، أي سقطت اوبارها.فالصعلوك، لغة: هو الفقير ، الذي لا مال له ولا اعتماد ، والتصعلك ظاهرة عُرف بها العصر الجاهلي، وقام بها أفراد ومجموعات احتقرهم المجتمع القبلي، فعاشوا على هامشه. (٣٧)

حول موضوع الصعلوك، والصعلكة والتصعلك كتبت دراسات عديدة في العصر الحديث عن ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي، بعضها أدان هذه الظاهرة ، والبعض الآخر اعتبرها تمرداً على قوانين القبيلة وأعرافها، وآخرون اعتبروهم قطاع طرق.

وقد نقل عن أبي علي القالي في كتاب الأمالي، إن النبي محمد(ص) " كان يستفتح بصعاليك المهاجرين . قال أبو عبيدة : معناه يستنصر. والصعلوك : الفقير في كلام العرب.

إذن الصعلكة الفقر في الأصل، والصعلوك الفقير في كلام العرب ، لكن الصعاليك لم يكونوا مجموعة من الفقراء البائسين، بل كانوا خليطاً كبيراً من فئات متنوعة، إذ فيهم الفقير العاجز المسكين، الذي يعيش على هامش الحياة ، ينتظر الإحسان، ويساعد نساء الحي لقاء هبات حقيرة . والى جانبه نجد الفقير الشرس ، الذي يمتشق خنجره، ويسل سيفه، وينطلق ساعياً الى رزقه عنوة، وفيهم الشهم، الذي

يشفق على رفاقه الصعاليك الضعاف ، فيغزوا ويعطيهم ، كعروة بن الورد.. وفيهم اللئيم الذي لا يتطلع إلا إلى مصلحته فلا يرعى ذمة رفيق أو صديق.(٣٨)

وهذا يعني أن الصعلكة ظاهرة اجتماعية واسعة ينطوي تحت لوائها فئات كثيرة من المجتمع غير متجانسة ، ولكن يجمعهم الفقر والتهميش والنظرة الدونية. والصعلكة لا تخص الشعراء وحدهم، بل تضم فئات اجتماعية متنوعة يجمعها ظلم قوانين القبيلة وتقاليدها ، وصرخات الجوع، وآهات الألم،وهبّات التمرد على القبيلة . وسواء أكان الصعلوك خليعاً او منبوذاً لسواد بشرته، فأنه يجد نفسه غريباً، ووحيداً في مواجهة العالم، محروماً من عطف القبيلة ، وحدبها ، وليس له من يرد عنه غائلة الجوع. ففي شعر السليك يظهر أن الجوع كان يستبد به في الصيف، حتى إذا قام فانه يشعر بالإغماء الشديد، فيريه الدنيا ظلاماً من أثر الجوع. (٣٩)

إن أعضاء الخلية الأولى لهذه الفئات الاجتماعية المهمشة أولئك الذين عزلتهم تقاليد وعادات القبيلة وقوانينها الجائرة ، وراحت تطلق عليهم ب(أغربة العرب) فقد شكل هؤلاء النواة الأولى التي تجمَّعْ حولها كلُّ من يشعر بالظلم والتهميش ، والجوع والحرمان، وكلُّ من يشعر بالغربة ،وهو يعيش وسط أهله وقبيلته، فهو غريب، وقد غرَّبتْهُ – قسراً– تلك الممارسات الاجتماعية الجائرة، والنظرة الدونية التي يتلقاها هؤلاء (الأغربة)، وكذلك الفقراء من أبناء القبيلة. والشيء الغريب إن النظرة الدونية تمارس ضد الفقراء أي الصعاليك ، لأنهم فقراء ، ولا يشاركون في الغزوات ،ونهب أموال وممتلكات الآخرين، الأمر الذي دفع بعض الصعاليك إلى ممارسة مهنة الغزو، ليطعموا أنفسهم وغيرهم من الفقراء . وحين وصلت أمور احتقار الفقراء، أي الصعاليك إلى حد لا يحتمل ، تمرد هؤلاء الناس، تمردوا على قوانين القبيلة ، وعلى نمط حياتها، وعلى مثلها، وعلى عاداتها وتقاليدها، فنبذوا قبائلهم ، مثلما نبذتهم تلك القبائل ،

وفضلوا حياة الغربة والتشرد والتصعلك (أي الفقر) على الخضوع لقوانين القبيلة الجائرة. وعلى هذا الأساس عاش الشنفرى، وهو واحد من (أغربة العرب) وصعلوك متمرد على قبيلته، عاش بعيداً عن قبيلته ، بل نراه يخص قبيلته بانتقامه الرهيب، وغزواته الدائمة، معلناً في أشعاره ، انه يقتص لنفسه منهم، ولعل السبب الآخر إن قبيلته قتلت أباه [٤٠]. وقد كان عروة بن الورد في مقدمة رجال هذه الحركة التمردية على ذلك الواقع الفاسد، رغم أنه لم يكن من (أغربة العرب) ولم يكن فقيراً ، بل كان غنياً ، كما كان شجاعاً وشاعراً بارزاً ، رافضاً لهذه الأعراف السائدة بين الناس، والتي تبجل الغني ، وتغض النظر عن مساوئه ، فهو يقول:

ويلفي ذو الغنى وله جلالٌ يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والـذنب جـمٌّ ولكن للغني ربٌّ غفور

فعروة ، وهو يصور هذا الواقع المِمالِيَ للغني يفضح ظلمه وجوره، ويعلن رفضه له، ففي ذات الصعلوك بذرة تمرد، وتميز وتفرد، وهو فارس اليأس ، وبطل الحرية خارج المجتمع ،وعدو التقاليد ، التي تسوي بين الناس في الظلم والفقر والمهانة ، ولا تسوي بينهم في القيمة والغنى والكرامة. [٤١]

وهناك ميزة أُخرى تميز بها الصعلوك المقاتل ، هي الشجاعة ، لأن الصعلوك عادة ما يفضل الموت على العيش الذليل ، فهم أي الصعاليك لا يهابون الموت . ففي الواقع كانوا يرون الموت اخف وطأة من حياة الذل والضعة . وقد ذكر ذلك صراحة أبو خراش الهذلي فقال :

مخافة أَن أُحيا برغمٍ وذلةٍ وللموتِ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ

فالذل مرفوض ، ومن أجله رفض القبيلة ، التي تمارس الإذلال مع أبنائها الفقراء أو السود(المولدين) ولم تعاملهم معاملة كريمة ، وهو على استعداد لرفض

الحياة كلها إذا ارتبطت بالذل الذي عافته نفسه . [٤٢] وعلى هذا الأساس مات الشنفرى مقتولا ، وكذلك تأبط شراً ، والسليك بن السلكة ، قتلوا في غارات لهم ، لكن اللافت إنهم لم يجزعوا من الموت ، بل عانقوه معانقة ، ورغبوا في أن ترمي جثثهم في الطبيعة ، التي عاشوا في حضنها ، وبين ربوعها وتلالها ووديانها ، كي تفترسهم الوحوش والسباع . باعتقادهم أَن رغبتهم في محاربة الظلم ستتواصل من خلال هذه الوحوش التي ستواصل حربا لا هوادة فيها ضد الظالمين ، وأن يكونوا عطاءً وهبة وغذاء للعفوية الأولى ، وعنصرا متناغما من عناصر الطبيعية الحية المتواثبة.

من هنا نجد أن الصعاليك ، والفئات الاجتماعية المهمشة الأخرى ، التي التفت حولهم قد عاشوا غرباء ، وحيدين ومشردين ، ومتمردين على قبائلهم وقوانينها الجائرة ، التي رفعت عنهم غطاء العصبية القبلية ، التي تستظل بها القبيلة ، إذ أَن هذه العصبية القبلية كانت ضمانة لكل فرد من أفرادها في العصر الجاهلي .

ولكن الصعاليك أنشأوا في ما بينهم رابطة عصبية أساسها الظروف الحياتية التي يعيشونها ، فشدت بعضهم إلى بعض ، إذ كان الصعلوك يحدب على رفاقه ويساعدهم ، مخاطرا بحياته في سبيل إنقاذهم ، وهو يقسم بينهم الرزق ، الذي يحصل عليه .. وقد ارتقت هذه العصبية الرفاقية ، وتجاوزت العصبية القبلية التي يختص بها الرئيس بنصيب اكبر من غيره مما يحصلون عليه من غنائم ، فقد كانت القسمة متساوية في مجتمع الصعاليك . [٤٣]

شعراء أفردتهم القبيلة فأضحوا غرباء

ورد في قواميس اللغة العربية ، بان الغريب ، هو الشخص الذي ليس من القوم ، ولما كانت القبيلة العربية أو القبائل قد عزلت (المولدين) أو أغربة العرب ، والمتمردين

من الشعراء وغير الشعراء ، من الفرسان وغير الفرسان ، وأبعدتهم عن عضوية القبيلة ، ليعيشوا على هامش المجتمع، غرباء مهانين مذلين ، فقد تولدت لدى الشعراء ، وشجعانهم رغبة للتمرد على القبيلة وقوانينها وأعرافها الجائرة .. وكان من ابرز هؤلاء المتمردين من الشعراء ، هم ما يطلق عليهم بالشعراء الصعاليك . وكان في مقدمتهم الشنفرى ، والسليك بن السلكة وعروة بن الورد ، وعمرو بن براق وتأبط شراً . وكان ابرز هؤلاء الشعراء المتمردين :

الشنفرى : وهو الشنفرى الازدي ، يمني الأصل ، من بني اواس من الازد ، وهو شاعر صعلوك، ومن العدَّائين الفتاك ، الراجلين كان يضرب به المثل في سرعة الركض ، ومدى القفز، وقيل كانت الخيل لا تلحقه ، وقيل قيست (نزوة) أو قفزة من قفزاته فكانت إحدى وعشرين خطوة (ثمانية أمتار ونصف المتر) وكان الشنفرى يغزو على رجليه وحده أو في نفر قليل من الصعاليك العدائين أمثاله كقريبه تأبط شراً ، ثم عامر بن الاخفش ، وعمرو بن براق ، ورجل اسمه المسيب واسد بن جابر، كما كان يضرب به المثل في الحذق والذكاء. (٤٤)

ويعد الشنفرى من أشهر الصعاليك في العصر الجاهلي ، ومن المع شعرائهم ، ومع ذلك اختلف الرواة في اسمه ، فقيل انه ثابت بن اوس الازدي ، وعمرو بن مالك الازدي ، وعمر بن براق . وقيل أن الشنفرى أسمه لا لقبه والشنفرى يعني الغليظ الشفاه ، وهذا ما يدل على أن دماء حبشية تجري في عروقه من ناحية أمه ، فهي (أمة) حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ، ولذلك عُدَّ في أغربة العرب . والشنفرى احد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم . (٤٥) وقد ترك الشنفرى شعرا غزيرا ، لكن معظمه ضاع ، وما بقي منه إلاَّ القليل ، الذي يدل على شاعريته الفذة . فإذا كان عروة بن الورد قد تزعم جماعات الصعاليك ، فان الشنفرى ، هو زعيمهم شعريا بدون

منازع . فقد ارتفع الشنفرى في لاميته ، والتي تسمى بـ (لامية العرب) في تصوير الحياة الجاهلية إلى مستوى الخلق الفني الموهوب ، حتى أضحت لاميته من أهم وثائق الفن والحياة المعبرة عن نموذج المعيشة الجاهلية .

لقد حظيت (لامية العرب) بعناية فائقة فقد شرحها قديما الخطيب التبريزي ، والزمخشري وابن الشجري ، وابن أكرم وغيرهم ، وترجمها حديثا الأستاذ جورج يعقوب إلى الالمانية ، وترجمها ريد هوس إلى الانجليزية وعلق عليها، وترجمت إلى الفرنسية ، وشرحت كما ترجمت إلى البولونية والايطالية والى لغات أخرى حية وقديمة . وعني بدراستها المستشرق تيودور نولدكه فحققها . (٤٦)

إن الشنفرى حين اختار الصحراء منفى له ، كان ينطلق في فلسفته الخاصة ونظرته إلى طبيعة الحياة في ظل مجتمع تسيره وتحكمه أهواء القبيلة وعاداتها وتقاليدها ، التي لا تساوي بين أبنائها الذين هم من قبيلة واحدة ، الأمر الذي يتعارض مع فلسفة الشنفرى ، الذي يرفض التمييز ولا يقبل الإهانة والسكوت عليها ، وهو الشاعر البارز ، والفتى الشجاع ، الذي يرفض الإذلال ، لذلك اختار له منفى بعيدا عن ظلم القبيلة ، انطلاقا من قوله :

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

وكذلك قوله :

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

إذ أن الشنفرى كان يرى بان كريم النفس يجد في التنقل في الأَرض ما يبعد به عن أن يحتمل الضيم ، أو أن يلحقه الأذى ، وان من خاف بغض الناس له يستطيع أن يعتزلهم ، ويبتعد عما يفعلون. (٤٧)

فحرية الإنسان المضطهد يمكن أن تكون في هذه الأرض الواسعة ، إذ أن الأرض لا تضيق على امرء عاقل ، شد الرحال سواء أكان هذا المرء راغبا في الرحيل ،مقبلا عليه ، أم راهبا له ، متحسبا عواقب المجهول ، الذي يصاحبه.إن من يتخذ مثل هذا القرار عليه أن يختار مجتمعا آخر يجد فيه الاطمئنان على حياته، وعدم الاعتداء على كرامته ، كما يجد فيه حرية التعبير عن مواقفه وأرائه ، وسلوكه الشخصي ، والشنفرى حين اختار مجتمع الصحراء بما فيها من حيوانات أليفة ومتوحشة ، كان مقتنعا بخياره هذا :

هم الأصل لا مستودع السرَّ ذائعٌ لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يخذلُ

إن هؤلاء الأهل الجدد لا يذيعون في الناس ما يستودع لديهم من أسرار ولا يخذلون العائذ بهم، وان كان ذا جرائر . وهو يرى بأنه ليس عبئا على هؤلاء الأهل الجدد ، وعلى صحبته لهم ،هو ليس بالذي يستغل منها شمائلها التي يحبها . (٤٨)

هذه الغربة التي فرضت عليه ، وأبعدته عن موطنه وأهله وناسه ، سواء أكان راغبا في هذه الغربة أم مجبرا عليها ، لا يعني أنها لم تسبب له حنينا طاغيا إلى أرضه وناسه ، الذين افتقدهم ، بل إن مشاعر الحنين راحت تقض مضجعة ، وان ذكرى الأحبة لا تفارق خياله رغم محاولاته لإيجاد بديل لهذا الحب والحنين ، ولهذه الغربة القاسية :

واني كفاني فَقد مَنْ ليس جازيا بحسنى ولا في قربه متعلل

ثلاثة أصحاب : فـؤادٌ مشيَّعٌ وأبيضَ أصليت وصفراء عيطل

وكان الشاعر في إثارة هذا الفقد يشعر بالاستيحاش لفقده بني أمه ، وكأنه بذلك يؤكد حبه لمجتمعه البشري ، الذي يلحظ المرء مناخه في خطابه لهم في صدر البيت الأول :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فـاني إلى قوم سواكم لأَمْيَلُ

أي انه يستوحش لفقدهم، ويشتاق إليهم ، وما يسليه عنهم إلا هذه الثلاثة وألا تعشقه الصفات، التي يفتقدونها – في وحوش الصحراء – وإذن فالفته لشعاب الأرض ، ووحوش الصحراء ، ليست ألفة تعشق ، ومحبة لذاتهما ، ولكنها ألفة جاءت بقرار سياسي – إن صح التعبير – وهي ألفة فيها عنت ومشقة ولكنه يصبر نفسه عليها مختارا. (٤٩)

السليك :السليك بن عمر ، وقيل بن عمير بن يثربى ، احد بني مقاعس ، ويعود نسبه إلى سعد مناة بن تميم ، والسلكة أمه ، وهي (امة) سوداء ، اخذ عنها سوادها فَعُدَّ من (أَغربة العرب) وصعاليكها ، الغرباء عن مجتمع القبيلة ، وربما كان السواد سببا مباشرا لتصعلك هذا الشاعر ، وخروجه على المجتمع ، واشتهر السليك بأنه عداء لا يشق له غبار ، حتى ضرب به المثل ، وعرف السليك بفتكه ، فهو فاتك من شياطين الجاهلية .

وترك السليك بعض القصائد ، ولكن لم يصلنا منها إلا القليل ، هذا مع العلم أن المفضل ذكر ، إن السليك من اشعر العرب ، وفي هذه المقطوعة القليلة التي وصلتنا تصور " الجانب الحياتي الواقعي من شخصيته ، بصوره مباشرة ، اقرب إلى النثر الفصيح منه إلى الشعر المبدع ،كما هو عند الشنفرى أو تابط شرا. (٥٠)

ومما جاء في أشعاره :

الم تر أنَّ الدهر لونان لونه وطوران بشرٌ مرة وكذوبُ
فما خيرُ مَنْ لا يرتجي خيرَ أوبهِ ويخشى عليه مريةٌ وحروبُ

ويقول أيضا :

أشاب الراسُ إنيّ كَلَّ يوم أرى لي خالةً وسط الرِّحال
يَشقُّ علي أنْ يلقين ضيماً ويعجز عن تخلصهن مالي

هو يشكو من الم اختطاف وسبي النساء السود من قبل رجال حملات الغزو القبلية ، التي تحصل في صحراء الجزيرة ، وهي ظاهرة شائعة تستهدف (خالات) السليك ، باعتبار أن أُمهُ واحدة منهن ، أي إنها (امة) سوداء. [٥١] وهو يتألم لهن ولمعاناتهن ، ويتألم من عدم قدرته على تخليصهن من أَيدي الرجال ، كما انه لا يملك المال الذي يحررهن به .

وكان السليك يفخر بكرمه ، ويتباهى به وذلك من خلال قوله :

إذا أرملوا زاداً عقرت مطيَّة تجرَّ برجليها السريح المخدما

أي انه ينحر ناقته أو فرسه إذا أحس بان قومه قد أرملوا أي نفد ما عندهم من طعام ، فلايهم أن يعقر الناقة ، التي تتهادى بسيرها بخطوات قوادمها المزينة بالخلاخل الرنانة .

عمرو بن براق : المعروف أن عمر بن براق صعلوك بائس من الصعاليك ، كان صديق تأبط شراً ، والشنفرى يغزو معهما ، ويأكل من زادهما ، ولهؤلاء الثلاثة قصة مأسوية ، وقعوا فيها بأيدي الأعداء ، لكنهم استطاعوا التخلص منها بحيلة دبروها ، فأنقذوا حياتهم من خلالها . ومن أشعار عمرو بن براق قصيدة بعنوان تقول سليمي ، قال هذه القصيدة – كما تذكر الروايات – بعد أن أغار رجل من مراد يقال له (حريم) على ابل عمرو بن براق ، وكذلك على خيل له ، فذهب (حريم) بها ... أتى عمرو بن براق إلى سلمى ، وكانت بنت سيدهم ، وعن رأيها كانوا يصدرون – فاخبرها بالأمر ، ثم أغار على (حريم) واستاف ، أي أعاد كل شي له ، فأتى (حريم) بعد ذلك يطلب إلى عمر أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع أن يعطيه شيئا ، ورجع حريم ، فانشد عمرو: [٥٢]

تقـول سليمي لا تعِّرض لتلفة وليلك من ليـل الصعاليـك نائـم

وكيف ينامُ الليل من جُلَّ ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليلٌ إذا نـام البطينُ المسـالم

تأبط شرا: هو ثابت بن جابر الفهمي من قيس ، كان من (أغربة العرب) أسود ، لأن أمه كانت حبشية ، أو زنجية . وقيل بل كانت أمه من بني (فهم) أيضا ، تدعى آمنة أو أمينة ، وسبب لقبه انه اخذ ذات يوم سيفا تحت إبطه وخرج . واتفق إن سئلت أمه عنه فقالت:لا أدري،لكنه تأبط شراً وخرج.أي انه وضع سيفا تحت إبطه .

وقد كان تأبط شراً ، شاعراً بائساً من الصعاليك ، حاد البصر والسمع ، عداء يلحق بالخيل والظباء ، ويغزو على رجليه وحده . وتزوجت أم تأبط شراً أبا كبير الهذلي . ويبدو أن الزوجين الجديدين ضاقا ذرعا بهذا الطفل الشرير ، فحاول أبو كبير قتله بضع مرات ، ولكن تأبط شرا كان يقظاً جدا . ويبدو أن تأبط شراً أدرك ذلك جيدا ، فأصبح عدوا لبني هذيل طيلة حياته ، وكذلك عدوا لبني رُجيلة ، والمجمع عليه ، أن تأبط شراً مات قتلا ، قيل قتل في معركة مع بني رُجيلة في جبل (نمار) من أرضهم ، وقيل أخرج حية من جحرها فلدغته ، وكذلك كانت هذيل تدعي قتله . وكان مقتله نحو عام 92 قبل الهجرة (530) ميلادية بعد الشنفرى.. وكان اصغر سنا من الشنفرى تأبط شراً شاعر جاهلي ، وشعره في الحماسة والتصعلك ، وكان الجاحظ يشك في بعض شعره ، وكذلك كان شعره وشعر خاله الشنفرى يتداخلان لتقارب خصائصهما وأغراضهما، ولتأبط شراً رثاء في الشنفرى[٥٣] يقول تأبط شرا :[٥٤]

سباق غـايات مجد في عشيرته مُرَّجع الصوت هدَّاً بين أرفـاق
حمّـالُ ألوية ، شهّـاد أنـدية قـوال محكمة ، جـواب آفـاق

إني زعيم – إذا لم تتركوا عذلي أن يسأل الحي عني أهل آفاق
أن يسال القوم عني أهل معرفة فلا يخبرهم عن ثابت لاق

عروة بن الورد : هو أبو نجد ، عروة بن الورد من بني عبس ولكن أمه من بني (نهد) من غير ذوي الأنساب المشهورة كان والد عروة من الفرسان ، الذين خاضوا حرب (داحس والغبراء) وكذلك كان عروة نفسه فارسا شجاعا ، ولكنه صعلوكا مغامرا وقد كان مقدما على الصعاليك لفروسيته وشجاعته وكرمه ، فقد كان يقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزوة ، ويعولهم إذا لم يكن عندهم معاش حتى سمي عروة الصعاليك . وقد فضله بعضهم على حاتم طي في الكرم ، كما كان كريم الأخلاق عفيفا صادقا وفيا بالعهود ، وكان قد سبى امرأة من بني كنانة من أهل يثرب في أحدى غزواته اسمها سلمى في الأغلب وكنيتها أم وهب فاتخذها زوجة ورزق منها أولادا ولكنها فارقته في حديث طويل. وتوفي عروة نحو (7 قبل الهجرة)(615) ميلادية. و شعر عروة أكثره في التصعلك والفخر ، وبعضه في الحماسة والنسيب . ومما قاله عروة : [٥٥]

ذريني للغنى أسعى ، فاني رأيت الناس شرهم الفقيرُ
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإنْ أمسى له حسب وخيرُ
ويقصيه النـّدي وتزدريه حليلته ، وينهره الصغير
ويلقي ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ
قليلٌ ذنبُهُ ، والذنب جمٌّ ولكن للغني ربٌّ غفورُ

وله في التصعلك وطلب الرزق الأتي : [٥٦]

إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا

وصار على الأدنين كلا وأوشكت صلات ذوي القربى لـه أن تنكرا
وما طالب الحاجات من كلِّ وجهة من الناس إلاَّ مَنْ أجـدَّ وشمـرَّا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسـار أو تموت فتعـذرا

عروة بن الورود إذن لم يكن صعلوكا فقيرا ، بل كان صعلوكا متمردا على قوانين القبيلة وعاداتها وتقاليدها ، وهو لم يكن واحدا من أغربة العرب السود الذين يعيرونهم بسواد بشرتهم ، بل كان صعلوكا شجاعا انضم إلى صفوف الفقراء المهمشين في مجتمعاتهم ، الفقراء الذين أفردتهم القبيلة وسحقهم الجوع والعزلة والتغرب والعنصرية القبلية. كان ابن الورد شاعرا وقائدا شجاعا يغزو كما تعزو القبائل ، ويوزع ما يحصل عليه من غنائم بالتساوي دون تمييز بين الفقراء والمهمشين ، لا فرق بين قائد وصعلوك ، الجميع سواسية في مجتمع الصعاليك المسحوق ، الذي شكل أَول حركة رفض لما هو سائد ومألوف بين أبناء القبائل العربية في صحراء الجزيرة . وقد كان الشعراء هم طليعة الرفض والتمرد ، وهم قادة التغيير والتنوير في المجتمعات منذ عصر الجاهلية حتى يومنا هذا .

إن حياة المجتمعات ، وما حصل فيها من تحولات تاريخية عبر مراحل التطور المادي للتاريخ كانت محط اهتمام الأدب والفن ، فالأدب والفن وبشكل خاص الفن ، هو الذي يؤرخ لحياة المجتمعات وأزماتها وصراعاتها وتحولاتها . وهذا ما يؤكده هاينه عندما قال : " غريبة هي نزوة الناس إنهم يطلبون تاريخهم من يد الشاعر ، وليس من يد المؤرخ . إنهم يطلبون ليس تقريرا أمينا عن حقائق مجردة ، بل تلك الحقائق ، التي انحلت عائدة إلى الشعر الأصلي الذي جاءت منه ".(٥٧)

الهوامش

١- : الآية : 66 سورة النساء.

٢- : لسان العرب المحيط : للعلامة ابن منظور : (غرب) 966-967.

٣- : معجم متن اللغة : العلامة الشيخ احمد رضا : م2 _ 276 ، 277 ، 278.

٤- : القاموس المحيط : الفيروز أبادي : م1 – جـ1 : 109.

٥- : لسان العرب المحيط : ابن منظور : م2 – 966 ، 967.

٦- : المصدر نفسه : 967.

٧- : الأصفهاني : أدب الغرباء : 32.

٨- : الجاحظ : رسالة الحنين إلى الأوطان : 9.

٩- : الجاحظ : المصدر السابق : 9.

١٠- : المصدر نفسه : 10.

١١- : المصدر نفسه : 13.

١٢- : المصدر نفسه : 14 – 39.

١٣- زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع الهجري : جـ2 – 140.

١٤- : معجم متن اللغة : موسوعة لغوية حديثة : للعلامة أحمد رضا : م2 / 184.

١٥- : القاموس المحيط الفيروز أبادي/م2 – فص ح- باب النون/ 216.

١٦- : أبو الفرج الأصفهاني: أدب الغرباء:9.

١٧- المصدر نفسه: 15 -16.

١٨- : المصدر نفسه: 82

38- : لسان العرب المحيط: العلامة ابن منظور : 969 .

39- معجم متن اللغة: العلامة الشيخ احمد رضا، 276، 277، 278.

40- القاموس المحيط: الفيروز أبادي: 109، 110.

41- الشعراء الصعاليك: طلال حرب:11.

42- : أشعار الشعراء الستة الجاهليين: الأعلم الشمنتري، .124

44-: تاريخ الأدب العربي: عمر فرّوخ: 208.

٢٥- : أشعار الشعراء الستة الجاهليين : الاعلم الشنتمري/ ج2/ 112- 124.

٢٦- : المصدر نفسه: ج2/ 126- 128.

٢٧- : شرح المعلقات السبع: الزوزني/ ط60/2.

٢٨ - : أشعار الشعراء الستة الجاهليين: الأعلم الشمنتري /ج5/2.

٢٩-: المصدر نفسه: ج5./2

50- تاريخ الأدب العربي : عمر فرّوخ/ج135/1.

51- أشعار الشعراء الستة الجاهليين: الأعلم الشمنتري:ج8-7/2.

52- المصدر نفسه:10.

٣٣ - : شرح المعلقات السبع: الزوزني/ دار صادر/ بيروت- 44.

٣٤ - : أشعار الشعراء الستة: الأعلم الشمنتري : 18.

٣٥ - : أشعار الشعراء الستة الجاهليين: 23.

٣٦ - : أشعار الشعراء الستة الجاهليين : 25-26-27.

٣٧ - : لسان العرب المحيط/ج5/2: وينظر الشعراء الصعاليك.

٣٨ - : الشعراء الصعاليك: 6،7،8.

٣٩ - : المصدر نفسه : 10.

٤٠ - : المصدر نفسه:11

65- المصدر نفسه: 12

٤٢ - المصدر نفسه : 14 .

٤٣ - المصدر نفسه : 21 .

٤٤ - تاريخ الأدب العربي : عمر فروخ : 102 .

٤٥ - الشعراء الصعاليك : 25 .

٤٦ - ديوان الشنفرى : 28-29 .

٤٧ - في التذوق الجمالي للامية العرب : محمد علي أبو حمدة :17،19،21،25 ز

٤٨ - المصدر نفسه: 21 .

٤٩ - المصدر نفسه: 29-30 .

٥٠ - موسوعة الشعر العربي : ج1 / 143

٥١ - الشعراء الصعاليك :97،98،08 .

٥٢ - المصدر نفسه : 107-108.

٥٣ – تاريخ الأدب العربي : عمر فروج : ج1 / 107–108

٥٤ – المصدر نفسه : 109 .

٥٥ – المصدر نفسه: 213 .

٥٦ – تاريخ الأدب العربي: 213 .

٥٧ – الرواية التاريخية : جورج لوكاش : 68 .

المصادر

١ –القران الكريم .

٢ –أدب الغرباء / ابو الفرج الاصفهاني .

٣ –الاغتراب في شعربدرشاكرالسياب/أحمد عودة الله الشقيرات/ط 1–1987.دارعثمان للنشر والتوزيع/ الاردن .

٤ –الأعمال الكاملة للشاعر محمد مهدي الجواهري .

٥ –أشعار الشعراء الستة الجاهليين / اختيار العلامَّة يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالاعلم الشنتمري / منشورات دار الافاق الجديدة / ط1 – بيروت 1979 .

٦ –الرواية التاريخية / جورج لوكاش .

٧ –الشعراء الصعاليك / إعداد وتقديم طلال حرب / الدار العالمية – بيروت 1993 .

٨ –القاموس المحيط للفيروز ابادي / دار الفكر – بيروت 1978 .

٩ –النثر الفني في القرن الرابع الهجري / د.زكي مبارك .

١٠ –تاريخ الأدب العربي / عمر فروخ / دار العلم للملايين – بيروت / ط6 – 1992 .

١١ –تاريخ الأدب العربي/كارل برو كلمان/نقله إلى العربية الدكتور عبدالحليم النجار/مؤسسة دار الكتاب الإسلامي .

١٢ –حديث الأربعاء / طه حسين / ط14–1993 / ثلاثة أجزاء .

١٣ –ديوان بدر شاكر السياب / المجلد الأول .

١٤ –ديوان عبد الوهاب البياتي / المجلد الأول .

١٥ –ديوان الشنفرى / إعداد وتقديم : طلال حرب / بيروت 1993 .

١٦ –رسالة الحنين إلى الأوطان / لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ / دار الرائد العربي – بيروت.

١٧ –رسائل الجاحظ / تحقيق وشرح عبد السلام هارون / دار الجبل بيروت 1991 .

١٨ –شرح المعلقات السبع للزوزني/أبو عبدالله الحسين بن احمد الزوزني ، دار الجيل – بيروت / ط2 – 1972 .

١٩ –شرح المعلقات السبع للزوزني / دار صادر – بيروت للطباعة والنشر / بيروت 1980.

٢٠ –شرح ديوان طرفة/سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب/منشورات دار مكتبة الحياة/بيروت1989 .
٢١ –في التذوق الجمالي للامية العرب / محمد علي ابو حمدة .
٢٢ –قضايا الشعر الجاهلي / الدكتور على العتوم / ط1 – مكتبة الرسالة الحديثة / عمان – الاردن.
٢٣ –لسان العرب المحيط / للعلامة ابن منظور / قدم له الشيخ عبد الله العلايلي / إعداد وتصنيف يوسف خياط / دار لسان العرب – بيروت .
٢٤ –معجم متن اللغة / موسوعة لغوية حديثة / للعلامة اللغوي الشيخ احمد رضا / منشورات دار مكتبة الحياة / بيروت –1958 .

Weird poets displaced in the pre-Islamic era

Assistant Professor Dr.Sabih Mzaal Jaber
Center revival of Arab scientific heritage
University of Baghdad

(Abstract Search)

Alienation, and Westernization and away, whether forcibly sense exile or voluntary in the sense of migration, it will generate nostalgia, and a sense of overwhelming homesickness spatial or alienation spiritual (emotional) and perhaps alienation resulting from exile or forced deportation by the authority, whether that authority is the authority of the tribe or authority governor of the state, this alienation is the hardest kinds of alienation, of human exposure.The creators of literature and art owners are subjected to such denials and this torment, since it began Authority impose its opinion and community leadership.The beginning was (tribe) and its strict authority over their children Valaqbilh was proud and rejoice when he stands out among the sons poet be its spokesman, and crossing her days and victories, and generosity of her sons, and (poetry) Bomjadha. But some poets located them injustice, and fighting, and expelled and chasing by the tribe, and deprived of the privileges of her children in the ratios to the tribe and ratios paternity, as happened to poets born, no poets, born to mothers who Hbashaat or Sodawat skin, and these so-called (Ogrbh Arabs) as well as poets and non-poets of the poor and the rebels to the laws and customs of the tribe they are fighting and chasing and deprived of inheritance.